ايوانية البحتري

- ١ -

كان لملوك فارس عواصم متعددة أولها (اصطخر) وآخرها (المدائن) وكانوا قبل سابور (توفي سنة ٢٧٢ م) ينزلون (طَيْسفون) وهي المدائن الغربية الواقعة على ضفة دجلة اليسرى . فبنى سابور الإيوان بالمدائن الشرقية وانتقل اليه فصار دار الملك من بعده الى ظهور الإسلام . وسميت (المدائن) مدائن لأنها كانت مؤلفةً من عدة مدن وكانت هذه المدن عامرة بالسكان أثناء الفتح الاسلامي وفتحت آخر سنة ١٦ هـ (نصف كانون الثاني ٦٣٧ م) ودخلها سعد ابن أبي وقاص آخر شهر آذار من السنة نفسها . ثم لما بنى المنصور بغداد انتقل سكان (المدائن) اليها . وبُني قصر (التاج) من حجارة الإيوان . وأخذت المدائن من يومئذ بالخراب والاضمحلال . ولم يبق من آثارها اليوم سوى البناء الفخم الذي يسمى (ايوان) كسرى واختلفوا في بانيه هل هو سابور أو غيره . والصحيح أنه تعاون على بنائه عدة من ملوكهم . وهو من أعظم أبنية العالم : مبني بالآجر على مرتفع من الأرض مساحته (١٥٠) ذراعاً في مثلها وأمامه ميدان طوله (٨٠) ذراعاً في عرض (٢٥) ذراعاً . وقيل ان سعة الإيوان من ركنه الى ركنه (٩٠) ذراعاً وارتفاعه (٨٠) ذراعاً . ومن أقسامه قصرٌ لسابور اشتهر باسم (الأبيض) و (القصر الأبيض) و (أبيض المدائن) . وقد تهدم الإيوان ولم يبق منه سوى قنطرة عظمى اشتهرت باسم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(الطاق)[1] أو (طاق كسرى) أو (طاق الايوان) والطاق كلمة فارسية معربة بمعنى القنطرة . ومنه قولنا (طاقة) للنافذة لأن قسمها العلوي يشكل قنطرة في الأصل . والطاق مبني بالآجر : طول كل آجرة ذراع في عرض أقل من شبر . ومن أقسام الإيوان بناء عظيم يسمى (الجرماز) وقد اندرس ولم يبق له أثر . وفي الإيوان من التماثيل والصور شيء كثير : من جملتها صورة كسرى أنو شروان (وهذه الصورة في الجرماز فاعل الجرماز من بناء كسرى أنو شروان) وهو يحاصر أنطاكية وأهلها الروم يردونه عنها تحت راية ملكهم قيصر . وقد قال الشعراء في وصف الإيوان أشعاراً كثيرة أشهرها قصيدة البحتري فيه . وقد مرّ البحتري على الايوان ومعه ابنه (أبو الغوث) وكأنّ زيارته له كانت بعد شهوده مقتل المتوكل وحزنه الشديد عليه . فهاله ما رأى من فخامة البناء وغريب الصُور والتماثيل . فوصفه ووصف القصر الأبيض وصفاً عاماً ثم (الجرماز) ثم الصورة المذكورة التي تمثل حصار كسرى لأنطاكية ثم صورة تمثل مجلساً لكسرى مع نسائه وقيانه وعظماء مملكته . والقصيدة البحترية من خير أشعار البحتري على غموض في كثير من أبياتها لم نعهده في شعر البحتري الذي وُصف بسلاسل الذهب ، وقد اجتهدت كثيراً في مقابلة نسخ القصيدة ومعارضة بعض النسخ ببعض حتى استخرجتُ منها نسخةً ربما كانت أكملها ضبطاً وتحقيقاً ، وقد علّقت عليها شرحاً موجزاً أرجو أن تكون فيه الكفاية للطالب الحريص على فهم هذه القصيدة الفريدة .

* * *

(١) والطاق يبعد ٣٠ كم للجنوب الشرقي من بغداد . وقنطرة الطاق علوّها نحو أربعين متراً وسماكة الجدران نحو سبعة أمتار وطول فراغ بهو الإيوان ٦٦ خطوة وعرضه ٣٥ خطوة (والخطوة نحو ثلثي متر) .
والإيوان اليوم محاط بقفر على مقربة من مصبّ نهر (ديالا) القادم من إيران — في دجلة . وكان أي الإيوان قديماً محاطاً بمدينة (المدائن) عاصمة كسرى اهـ . ملخصاً من رحلة جرجس الخوري المقدسي المنشورة في مجلته (المورد الصافي) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(صُنتُ نفسي عما يدنّس نفسي ورفعتُ عن جَدَا كل جبْس)

(الجدا) العطية ويروى (ندا) وهو بمعنى الجود والسخاء . و (الجبْس) بكسر الجيم الغبي الدنيء الثقيل الروح (والمعنى) أنه يصون نفسه عما يُهينها ويدنس كرامتها: من ذلك أنه يربأ بها عن تناول عطيّة من الأدنياء السِفَل لأنهم يستكثرون عطاياهم ولا يزالون يمُنّون بها .

(وتماسكتُ حيث زعزعني الدهـ ـر التماساً منه لتعسي ونكسي)

ويروى (حين) مكان (حيث) وحين للزمان كحيث للمكان ومآل المعنى فيهما واحد . و (التعس) أن يخرّ الانسان على وجهه والنكس أن يخرّ على رأسه . هذا أصلهما ثم نُقلا الى معنى الهلاك: (تَعِسَ) كفرح اذا هلك و (تَعّسَه وأتعسه) أهلكه فهو تاعس وتعِس . و (نُكِسَ) على البناء للمجهول ونَكّسَه ونكّسَه فهو منكوس . (والمعنى) أن الدهر اذا نكبه نكبةً زعزعته وقلقلت عيشه مريداً إهلاكه وإسقاطه بين الناس فإنه يتماسك ويتجلّد ويصبر غير جَزوع ولا هَلوع .

(بُلَغٌ من صُبابة العيش عندي طفّفتها الأيام تطفيف بَخْس)

(البُلَغ) جمع (بُلْغَة) وهي ما يُتبلّغ به «أي يُكتفى به» من موادّ المعيشة بحيث لا يفضل منه شيء . و (الصُبابة) بالضم البقية الباقية من طعام وشراب . و (التطفيف) و (البَخْس) كلاهما بمعنى النقص: (طَفّف) الكيل والوزن نَقَصَه . و (بَخَسَه) حقّه نَقَصَه (يقول) انه اذا صان نفسه عن عطايا اللئام وصَبَر على نكبات الدهر فليس ذلك عن غنىً وسعةٍ من الرزق بل هو على العكس: لم يبق لديه من مرافق الحياة وأسباب المعيشة سوى بقية مُجلّفة منقوصة .

(وبعيد ما بين واردِ رَفْهٍ عَلَلٌ شُربه وواردِ خمس)

ذكر في هذا البيت حالةً من حالات الإبل في ورودها الماء قلةً وكثرة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وقد ضربها مثلاً لنفسه : (الرَفه والرفاهة) لين العيش ورغد الحياة في البشر . أما في الإبل فهو (أي الرفه) أن ترد الماء كل يوم متى شاءت . وفعله (رَفَهَ) من باب قَطَع و (رفُه) من باب حَسُن . ويغلط الناس في مصدريه فيقولون (رَفَه) بفتح الفاء مع أن الواجب تسكينها ويقولون (رفاه) بزيادة الألف وصوابه (رفاهة) بتاء في آخره كالرفاهية . و (العَلَل) ضد النَهَل : فالنهل أن تورد الإبل ثم تُرَدُّ الى العطن (وهو موضع بروكها على مقربة من المورد) وبعد قليل يوردونها مرةً ثانية ، وهذا الورود الثاني يسمى العَلَل . حتى إذا رويت ساقوها الى المرعى أو المراح وهو مبيتها ليلاً . ولا ريب أن سقي الإبل متى شاءت وسقيها ثانية : في ذلك زيادة ريٍّ لها وعناية بخدمتها وترفيه عيشها . وقد ضربه شاعرنا البحتري مثلاً لحالة الانسان اللَيِّن العيش الذي تيسَّرت له أسباب الخفض والدعة . قال وشتان من كانت حالته كذلك ومن كانت حالته كحالة البحتري : لا يرد رفهاً ولا عَلَلاً بل يرد خمساً . والخمس بكسر الخاء ظِمءٌ من أظماء الإبل كالربع والسدس : فهي ضد الرفه والعَلَل فان فيها (أي في هذه الأظماء الخمس والربع والسدس) تعطيشاً للإبل . وتزنيقاً عليها في المعيشة . وذلك يكون منهم إذا أرادوا سفراً بعيداً فإنهم يعوِّدونها العطش رويداً رويداً ربعاً فخمساً فسدساً . وبذلك تتمرن الإبل على تحمُّل العطش ثم يرمون بها في الفلوات أياماً وأياماً . فالخمس والسدس طريقة من طرائق خديعة الإبل والاحتيال عليها . ومن هنا المثل (فلان يضرب أخماساً لأسداس) أي يُري صاحبه أنه يُطيعه وهو إنما يراوغه ويحتال عليه . ويغلط الناس في استعمال هذا المثل فيقولون يضرب (أخماساً في أسداس) وصوابه (لأسداس) كما يضربونه مثلاً لمن يفكِّر في الأمر كي يتبيَّن وجه الصواب فيه . و (البحتري) يقول : الفرق بعيد بينه وهو عَطْشان كالبعير الوارد خمساً ـ وبين آخر توفرت له جميع أسباب الرغد ولين العيش .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(وكأنّ الزمان أصبح مخبو لاً: هواه مع الأخسّ الأخسّ)

في النسخ كلها (مخمولاً) بالميم وصوابه (مخبولاً) بالباء وهو من أصيب بفساد في عقله وأصبح كالمجنون لا يدري وجه الصواب في معالجة الشؤون، وهكذا الزمان في تضييق العيش على الكرام أمثال البحتري. (على الأخس الأخس) أي الأرذل الأرذل من الناس: فهو كأنه يؤثرهم ويسارع في هواهم.

(واشترائي العراقَ خطّةُ غبنٍ بعد بيعي الشآمَ بيعةَ وكسِ)

(الخُطة) بضم الخاء الخصلة ويكون بمعنى الأمر تهيؤه في نفسك لتجري عليه في عملك و (الغبن) أن تُخدع فتخسر في بيعٍ أو شراء و (الوكس) النقص والخسارة أيضاً، وكُسِسَ في تجارته أي خسر فذهب ماله. كأنّ (البحتري) ندم على تركه بلاده الشامية (وبلده منبج في حلب) الى الديار العراقية التي لم يعطه الزمان فيها ما يتمناه من طيب عيش ورغد حياة: فهو يقول: ان بيعه للشام وإفلاتها من يده كان عليه فيه وكسٌ وخسران، كما أن شخوصه الى العراق واشتراءه لها بعد ما باع الشام تدبيرٌ غير مصيب ومعاوضة أصبح فيها مخدوعاً مغبوناً.

(لا تَرُزني مزاولاً لاختباري عند هذي البَلْوَى فتنكر مَسّي)

(الرَوْز) أن تجرّبَ آخر وتختبر ما عنده من علمٍ وجهلٍ أو صبرٍ وجزعٍ أو حبٍّ وبغضٍ. وهكذا، فامتحان الطلاّب لمعرفة ما عندهم من العلم هو في الحقيقة رَوْز، والمَسّ معلوم لكنه هنا بمعنى التجربة والاختبار كالجسّ: أصله المس باليد ثم أصبح بمعنى الفحص والاختبار. والبحتري بعد أن وصف ما وصف من حالته الشؤمى في العراق علم أن صديقه سوف يعاتبه على تطليقه الشام وتركه لها حتى وقع فيما وقع به من هذه البلوى فبادره قائلاً: أتحاول معرفة تجلدي ومقدار صبري على هذه المصيبة التي أنا فيها؟ فانك بذلك ربما تحملني على الغضب والغلظة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فترى مني خشونة تنكر مسّها • وتسمع كلاماً مؤلماً لم تعهده مني من قبلُ ، دعني وما أنا فيه من الحزن والغم •

(وقديماً عهدتني ذا صفاتٍ آبياتٍ على الدنيئات شُمْسِ)

في الأصل (ذا هنات) ولا يلائم معناها هنا إلا على إرادة معنى الأمور الغريبة • فالصواب ما قلناه و(أبى عليه) امتنع ونفر ولم يطع • ومثله شَمَسَ يَشْمُسُ فهو شامس وجمعه (شُمْس) • والشُّموس في الفرس أن لا يمكن أحداً من ظهره ولا يكاد يستقرّ من قلقه • ولعل نفور الفرس هذا ناتج من رؤيته خياله في الشمس • ومن هنا جاء فعل شَمَسَ اذا نفر وأبى • يقول البحتري لصديقه لا تكثر من لومي وإرهاقي بالعتب فانك تعلم مني قديماً الإباء والنفور من فعل ما يشين • فطباعي وأخلاقي كالأفراس الشُّمْس التي تنفر مما تكره وتأبى على الراكب أن يُسرجها أو يُلجمها •

(ولقد رابني نبوُّ ابنِ عمي بعد لينٍ من جانبيه وأنسِ)

(النبوّ) الارتفاع ومنه نبا السيف عن الضريبة • والمراد بارتفاع ابنِ عمهِ شموخُه على البحتري وتعاليه : يقول ان من جملة البَلْوَى سوءَ عشرة ابن عمي لي فهو يشمخ بأنفه عليّ ويناْي بجانبه عني على غير ما أعهده فيه من لين الجانب وأنس الطباع •

(واذا ما جُفيتُ كنتُ حَرِيًّا أن أرى غير مُصبحٍ حيثُ أمسي)

المعنى أنني إذا جُفيتُ وأُسيئتْ معاملتي على هذه الصورة من الناس عامةً ومن ابن عمي خاصةً كنت حَرِيًّا وجديراً بأن لا يراني الناس باقياً وقتَ الصباح في المكان الذي عوملت فيه بالجفاء وقتَ المساء بل أرحل من فوري •

(حضرتْ رحلي الهُمُومُ فوجهـــــتُ إلى أبيض المدائن عَنْسي)

(الرحل) للبعير كالسرج للفرس والإكاف للحمار ثم صار الرحل يطلق على

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المثوى أي موضع الإقامة حيث توضع الرحال عادة عن ظهور الإبل وهـذا هو المعنى المراد هنا . والهموم جمع هم بمعنى الحزن والغم وهو فاعل حضرت ورحلي مفعوله مقدم عليه و (أبيض المدائن) أحد قصور إيوان كسرى كما تقدم مني بذلك لما يأتي في وصفه من بياض شرفاته و (العَنْس) بفتح العين وسكون النون الناقة الشديدة (يقول) إن الهموم والأحزان لما ألمّتْ به وخيّمت على منزله وجّه راحلته شطر مدائن كسرى وقصرها الأبيض . ولعل منزله كان يومئذٍ في بغداد وقد ارتاع من مقتل (المتوكل) إذ كان قد شهد (أي البحتري) الحادثة كما وصف ذلك في قصيدة رثائه للمتوكل التي مطلعها :

(محلٌّ على القاطولِ أخْلَقَ داثره وعادت صُروف الدهر جيشاً تَغَاوَرُهْ)

فأحب أن يرحل الى الإيوان فيفرّج كربه برؤية ما فيه من عجائب البناء وغرائب الصور والتماثيل .

(أتسلّى عن الحظوظِ وآمى لمحلٍ من آل ساسان دَرْسِ)

يريد (بالحظوظ) حظوظ الدنيا وخيراتها التي تخطته الى غيره من الناس فكان هو محروماً منها ، وهم المتمتعون بها . وكأنّ حرمانه إياها هاج في نفسه اللوعةَ والأسف وما كان ليخفف من برحاء ذلك إلا رؤيته مصائبَ غيره فيحزن لمصائبهم ، ويكون في طي ذلك الحزن شيءٌ من تخفيف حزنه هو . على حدّ قول ابن دريد (وفي خطوب الناس للناس أسَى) . وقوله : (وآمى) أي أحزن (لمحلٍ) أي مكان حلول وإقامة وهو الإيوان و (دَرْس) بفتح الدال الطريق الخفي والدِرس بكسر الدال (وقد تفتح) الثوب البالي كالدَرِيس وهو المراد هنا فيكون شبّهه بِلِيِّ القصر ببِلِيِّ الثوب . ويُجمع (درس) بالكسر على أدراس ومنه قول أبي تمام :

(ما في وقوفك ساعةً من باس تقضي ذِمام الأربُعِ الأدراس)

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

و (آل ساسان) هم الطبقة الأخيرة من ملوك فارس التي قضى عليها الإسلام . وقد تشتّت أفرادها في ذلك العهد كتشتت أفراد ملوك الروس من آل رمانوس وملوك الترك من آل عثمان في أقطار المعمور ، وكان بعض أولئك الساسانيين يطوفون البلادَ مُكدين مُستجدين . ويذكرون من نسبهم ما يرقّق القلوب عليهم . ثم أخذ الشحاذون الآخرون ينتمون الى ملوك ساسان كذباً واستدراراً لصدقات الناس . ومن ثم يُسمى الشحّاذون (أبناء ساسان) أما كلمة ساسان فيقول بعضهم في تحليلها إنها محرفة عن كلمتي (شاه شاهان) أي ملك الملوك فعربت شينها الى سين وخفّفت بحذف الهاءين فأصبحت (ساسان) . والمعنى أن البحتري شخّصَ الى الإيوان ليسلّي نفسه عن الحظوظ التي فاتته برؤيه قصور آل ساسان الدارسة البالية ويحزن ويرقّ لها ، ففي ذلك تخفيف لهمّه وحزنه .

(ذكّرتنيهمُ الخطوبُ التّوالي ولقد تُذكيرُ الخطوبُ وتُنسي)

ضمير (ذكرتنيهم) لآل ساسان و (التوالي) جمع تالية أي تابعة ولاحقة ولعله يشير بالخطوب التوالي الى الخطوب التي صُبّت على الخلافة العباسية بقتل المتوكل ، فهذه المصيبة التالية أي التابعة لخطوب آل ساسان ذكّرته بآل ساسان أنفسهم ، ومن أجل ذلك شدّ الرحال الى آثارهم في عاصمتهم (المدائن) ليراها ويرى قصرها الأبيض والخطوب التي حاقت بها ويقارن بينها وبين الخطوب التي نزلت ببغداد وقصرها (الجعفري) الذي جرت فيه حادثة قتل المتوكل . وقوله (ولقد تُذكر الخطوب وتنسي) يريد أن خطوب الدهر أحياناً يذكّر بعضُها ببعض وأحياناً يغطّي بعضها على ذكر بعض فيُنسي اللاحقُ السابقَ والمتأخرُ المتقدمَ ، أو المعنى أن الخطوب تذكر بخطوبٍ مثلها في الخطورة والشدة بينما هي تنسي ما كان دونها في العظم والهول .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(وهمُ خافضون في ظلّ عالٍ مُشْرفٍ يُحْسِرُ العيونَ ويُخْسِي)

قوله (وهمُ خافضون) حال من الضمير في (ذكرتنيهم) أي ان المخطوب ذكرتني بآل ساسان حالة كونهم (خافضين) أي وادعين آمنين ليّني العيش في قصورهم . و (عالٍ) صفة لمحذوف . أي قصر عالٍ يعني به الإيوان أو القصر الأبيض . و (مُشرف) مرتفع ولشدة ارتفاعه يُحسِرُ عيون الناظرين اليه ويُخسِؤُها أي يردّها حَسْرَى كليلة . فقوله (يُخسي) بالياء في آخره أصله (يخسئ) بالهمزة خُفّفت بقلبها ياء . وهو من (أخسأه) تعدية خَسَأ البصر خُسوءً و (يُحسِرُ) تعدية (حَسَرَ) البصرُ حسوراً كلاهما بمعنى كَلَّ البصر وأعيا بحيث لم يعد يستطيع النظرَ ثانيةً . يقول إنه تذكّرهم وهم ناعمون تَرِفون في إيوانهم الذي يرتدّ عنه الطرف كليلاً لارتفاعه .

(مُغْلَقٍ بابُه على جَبَلِ القبْقِ إلى دارتي خِلاطٍ ومُكْسِ)

(مغلقٍ) بالجر صفة لقوله عالٍ في البيت قبله أي ان ذلك القصر العالي أُغلق بابه على جبل (القَبْق) وهو جبل متصل بباب الأبواب وبلاد اللان في تخوم آذربيجان . وضبطه بافوت القبْق بالسكون أما صاحب التاج فضبطه بتحريك الباء فكأنّ الشاعر سكّنه للضرورة . وباب الأبواب هي المدينة المسماة (دَرْبَنْد شِروان) على الساحل الغربي من بحر الخزر ، فجبل القبْق إذن هو جبل قفقاسيا المسمى أيضاً جبل القفْج والقفجاق وكلها أسماء محرف بعضها عن بعض . أما ان القبَق هو جبل قفقاسيا نفسه فيستدل عليه أيضاً من قول صاحب (مراصد الاطّلاع) عند الكلام على مدينة (باب الأبواب) ـ وسميت باب الأبواب لأنها أفواه شِعاب في جبل القبق وكل فم شِعْبٍ بابٌ يوصل الى قُطر من الأقطار و (خلاط) مدينة مشهورة في أرمينية على ساحل بحيرة (وان) وهي ما زالت الى اليوم . أما (مُكس) فبضم الميم كما ضُبط في معجم البلدان بالشكل قرية

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

عامرة في بلاد أرمينية أيضاً واقعةٌ بين خِلاط وأرزروم . و (الدارة) كل أرض واسعة بين جبال . فخِلاط ومُكس كلتاهما واقعتان في دارتين ، والمعنى ان الإيوان مترامي الأطراف متسع الباحات فمَن دخله وأغلق بابه لا يظن أنه أغلق بابه على قصر بل على بلاد شاسعة تمتد من جبال القبق الى بلاد خِلاط ومُكس . وبينهما مسافات شاسعة .

(حِلَلٌ لم تكن كأطلال سُعدى في قفارٍ من البسابس مُلْس)

(حِلَل) جمع حِلّة بكسر الحاء المنزل يحل به القوم ، والقوم الحالُّون في الحِلّة أنفسهم و (البسابس) جمع بسبس القفر . و (مُلْس) جمع أملس وهو ذو الملاسة . والملاسة النعومة . والنعومة إنما تأتي من عدم وجود شيء على سطح الجسم . فهذه القفار ملساء أي جرداء لا شيء على سطحها من شجر أو نبات . وقالوا (فلاةٌ إملس وبيدٌ أماليس) أي ليس فيها نبات .

والمعنى أن تلك الحِلل والمنازل التي كانت تسكنها الأكارمة هي ذات شأنٍ وخطورة بالرغم من اندراسها وعَفاء أثرها وليست كتلك الأطلال المنقطعة في القفار الجرداء والتي يولع بذكرها شُعراء العرب وينسبونها الى سُعدى ويكثرون من وصفها والتغنّي بها : فشتان بين هذه الحلل ذات الروعة والهيبة والجمال . وتلك الحِلال حِلال سعدى ولُبنى والرباب التي ليس فيها من آثار الجمال سوى بعر الظباء . وأوتاد الخيام . وأثافي المواقد . وكأن البحتري يتكلم بلسان الشعوبية الذي لَهِج به أبو نواس مذ قال :

(عاج الشقيُّ على رسمٍ يسائله وعُجت أسأل عن خمّارة البلد)
(يبكي على طَلَلِ الماضين من أسدٍ لا دَرّ درّك قُل لي مَن بنو أسد ؟؟)

* * *

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

(ومساعٍ لولا المحاباةُ مني لم تُطِقْها مَسْعاةُ عَنْسٍ وعَبْسِ)

(مساع) جمع مسعى ومسعاة بمعنى السعي لكنّ المسعاة والمسعى السعي الشريف في عمل المكارم . كما أن السِعاية على العكس إذ يُراد بها النميمة والوشاية . وأراد بالمساعي هنا مساعي الأكاسرة وأعمالهم الجليلة التي نشاهد آثارها في بناء الإيوان .

إنّ البناء اذا تعاظم قدرُه أضحى يدل على مَقام الباني

و (المحاباة) المسامحة والتساهل في الأمر وعدم التشدّد فيه . و (عنس) اسم قبيلة مشهورة في اليمن و (عبس) قبيلة أخرى أشهر منها في الحجاز .

كأن البحتريّ أدرك أنه في بيته الأول (حِلال لم تكن كأطلال سعدى) كاد يزلق الى الشُعوبية . ويخون أمته العربية . لذلك عاد فتماسك في البيت الثاني وقال (ومساعٍ لولا المحاباة مني الخ) يريد أن من تأمل في إيوان كسرى آنسَ فيه مساعيَ فارسية مجيدة . ثم قال ولولا التساهل مني والتسامح لقلت إن قبائل قومي العرب كعنسٍ وعبس لا تُطيق أمثال تلك المساعي والأعمال أي إن للفرس أعمالاً مجيدة أكادُ أقول إن العرب لا يُطيقونها ، لكني لا أقول ذلك محاباةً لقومي . وميلاً اليهم . وإبقاءً على كرامتهم . ففي البيت إيجاز يكاد يخلّ بالمعنى تقديره أو تقويمه أن يقال هكذا : وللفرس مساعٍ لولا حبّي لقومي لكنت قلتُ إنه لم تُطقها مَسعاةُ قبائلهم لكنني لا أقول ذلك محاباةً لقومي .

على أن البحتري اذا لم يقل ذلك صراحةً فقد قاله ضمناً أو تعريضاً بحيث يوقع في نفس السامع أن الفرس يأتون من أعمال المجد بما لا تطيقه العرب : ففي البيت رائحة خبيثة من الشعوبية ، إلا أن يكون المعنى هكذا (للفرس مساعٍ لولا محاباتي لهم أي للفرس لقلتُ إن قومي العرب لا يطيقونها لكن محاباتي للفرس جعلتني أقول إنهم يطيقونها) وليس حَلّ المعنى على هذا الشكل بصحيح

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

لأنه صرح بالنفي مذ قال لم تطقها مَسْحاة عنس وعبس فالمعنى الأول هو الصواب ولعل البحتري تأثم من تهمة الشعوبية فاضطرب ولم يعرف كيف يقول ·

(نَقَلَ الدهرُ عهدَهن عن الجِـــدّةِ حتى غدون أنضاءَ لُبس)

ضمير عهدهن يرجع الى الحيلل) و (الأنضاء) جمع نِضو بكسر أوله وهو كما يُستعمل في معنى الهزيل من الحيوان يستعمل في معنى الدريس البالي من الثياب وقد أجراه هنا وصفاً للحيلل أي منازل ايوان كسرى و (لُبْس) بضم اللام مصدر لَبِس الثوبَ · والمعنى أن الدهر نقل عهد منازل الإيوان وغيّرها عن حالة الجدّة حتى أصبحت مندرسةً باليةً بِلى الثياب التي لُبست كثيراً ·

(فكأنَّ الجرمازَ من عَدَمِ الأُنـــس وإخلاقِهِ بَنِيَّةُ رَمس)

(الجرماز) اسم قسمٍ خاص أو جناح خاص من الإيوان كما مر ، وقالوا في تعريفه إنه بناء عظيم كان عند (أبيض المدائن) ثم درس أثره · وقوله (عدم الأُنس) بضم الهمزة ضد الوحشة كأنه قال من الوحشة ، أو هو بكسر الهمزة بمعنى الناس وبمعنى الأنيس : وقوله و (إخلاقه) مصدر أَخلق اذا بَلِيَ وهو معطوف على عدم الأُنس وضميره يرجع الى الجرماز · والإخلاق أصله للثوب لكنه استعمله في بِلَى المكان وكثيراً ما استعملوا ألفاظ هذا في هذا · و (بَنِيَّة) فعيلة من بنى يبني أي مبنية · و (الرَمْس) القبر غير المستشرف وهو المستوي مع وجه الأرض · يقول ان قصر (الجرماز) أصبح لوحشته أو لعدم وجود الأنيس فيه ولإخلاقه وذهاب آثاره كالرمس الذي بُني على مساواة سطح الأرض ، فما زالت تطؤه الأقدام ، وتتعاوره الرياح حتى اندرس وعفا أثره ·

(لو تراه علمتَ أنَّ الليالي جَمَلَتْهُ منه مأتماً بعد عُرْس)

أي انك اذا نظرت الى الجرماز خيّل اليك أنه كان عُرساً اجتمعت

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فيه النساء يلهون ويرقصن ويغنين فحولته صروف الليالي الى مكان اجتمعت فيه النساء يبكين ويندبن وينحن على الموتى من ساكنيه . ولو قيل (فيه مأتما) مكان منه مأتما لكان حسنا .

(وهو يُنبيك عن عجائب قومٍ لا يُشاب البيان فيهم بلَبْس)

(اللَّبس) بفتح اللام بمعنى الالتباس والاشتباه يقول إن الجرماز يُخبرك بعجائب من أمر هؤلاء القوم الذين بَنَوْه وأقاموا فيه . وبيان الجرماز (أي لسان حاله) وإفصاحه عنهم لا تشوبه شائبةُ التباس فيهم وفي ما وصفهم به من العَظَمة ورفعة الشأن وقوة السلطان : أو المعنى أن الجرماز يُخبرك بعجائب قوم لهم - بمجرد النظر الى آثارهم - بيانٌ وإفصاح عن أمرهم وعما كان لهم من العظمة ورفعة الشأن بحيث أن بيانهم عن أنفسهم هذا لا يشوبه التباس ولا اشتباه في صدقه ومطابقته للواقع .

(يتبع)

المغربي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net